أليز أغازريان*

المقدسيون وانشطار الهوية: من وحي فرانز فانون

تحاول أليز أغازريان، استناداً إلى مقولة فرانز فانون بشأن وقوع المستعمَر في غرام المستعمِر والتماهي معه، أن ترصد الحياة اليومية للمقدسيين، ولا سيما الشبان والنساء، وانشطارهم بين هويتين ومجتمعين: المجتمع العربي في القدس الشرقية، والمجتمع اليهودي في القدس الغربية. وتتعقب الكاتبة في هذه المقالة بعض مظاهر التمييز العنصري التي تلاحق العرب، أكانوا مقيمين في القدس العربية، أم متجولين في شوارع القدس الغربية، علاوة على الكشف عن تجليات القمع الذكوري للمرأة الفلسطينية ومحاولاتها الهروب من هذا القمع في المجتمع المقدسي العربي إلى مجتمع آخر ظاهره التحرر، وباطنه مزيد من القمع الجسدي العنصري. وفي هذه الحال، بحسب الكاتبة، فإن المرأة الفلسطينية تلجأ إمّا إلى تغطية جسدها كوسيلة لتأكيد الهوية، وإمّا إلى الكشف عنه كوسيلة للتماهي مع المستعمِر.

I

قبل خمسين عاماً نُشرت وثائق سرية عن الثورة الجزائرية تضمنت خلجات فرانز فانون بشأن العلاقات الاستعمارية بعد مرور خمسة أعوام على الثورة الجزائرية. وتضمنت هذه الوثائق تحليلاً لسيكولوجيا المستعمَر ولبعض المحاور ذات العلاقة بالمرأة الجزائرية والإعلام والعلاقات الأسرية والطب، وانعكاس ذلك كله على العلاقات الاجتماعية والعمل السياسي في المجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الكولونيالي الفرنسي. وقد دفعتني هذه الوثائق المنشورة بعنوان "العام الخامس للثورة الجزائرية" إلى توثيق ملاحظاتي في شأن العلاقات الكولونيالية في القدس الشرقية وتجلياتها على الجسد الفلسطيني المقدسي، بمكانه وزمانه المشرذمين. وبينما يتم في الآونة الأخيرة، في الخطاب الشعبي الفلسطيني، تعهير الفلسطينيين القاطنين في البلدة القديمة "وكر المخدرات والدعارة والإسقاط"، فإن هذه الخلجات تحاول النظر بشكل أعمق إلى ديناميات المجتمع الفلسطيني المقدسي في مواجهته نظام الفصل العنصري، وكذلك الفحص العنصري، في القدس الشرقية.

تتبارى القيادات العربية المحرومة من المدينة،

(*) كاتبة فلسطينية.

والمناصرون الدوليون المتكدسون في القدس، في التراشق بالتبجيل بـ "زهرة المدائن" وبمساحة القدس العامة. وفي زاوية أُخرى كانت حتى وقت قريب امتداداً للمدينة نفسها، ينهمك آخرون في خطاباتهم المتكررة عن جماليات القدس القديمة المتخيلة، ونقيضها المقدسي "الخائن" الذي "يحظى" بالوجود في المدينة، وصاحب الجسد "المدنس" بـ "المخدرات والإسقاط والدعارة"، وحامل بطاقة "افتحي يا سماء"، والمتحدث باللكنة التي أخذت النكات خارج الأسوار تضعها في قوالب مخصية من الرجولة. يقف "الابن العاق" المعترض لأجساد الإخوة من حملة البطاقات ذات اللون الأرضي، في طوابير التنميط الكولونيالية. يتجرع "ابن التأمين" صبّار الوجود في المدينة. يرى من غرفه الصغيرة وعبر الصحون المركبة على القبب جماليات مدينته، بينما تتعرض أرضه وكذلك صوته للاغتصاب، وجسده للتنميط والهيمنة.

والمقدسي، في كل خطوة يقوم بها، يعيش ديالكتيك الاستعمار. فهو مراقَب في كل تحرك يقوم به، ومضطر إلى إعادة تحديد علاقته بذاته وبمستعمريه وبمكانه المعرّض للشرذمة المستمرة. وفي البلدة القديمة يعيش آلاف المقدسيين في غرف خانقة وزوايا تفوح منها روائح ممزوجة بالرطوبة والبخور والدخان والطهي ورحيق الربيع والنفايات والبهارات والعطور وقهقهة الجيران وقعقعة الأنباء والأسواق الملونة وضجة الحياة اليومية ورتابتها، بمراسمها وشعائرها وطقوسها، وتكاد الحدود الفاصلة بين المساحة الخاصة والمساحة العامة تغيب. فكله مكشوف للسيّاح بعدساتهم الفضولية، وللجيران بعيونهم الملتزمة، ولأجهزة الرقابة والإعلام واحتمالات المداهمة. وعلى النقيض من ذلك، يتجول المقدسي في أسواق القدس الغربية البيضاء، حيث يعيش نشوة افتراضية، فهو يحسد مستعمِره على المساحة الرحبة التي يتمتع بها، والشوارع "النظيفة" المؤمنة والمقاهي الحرة، وينظر إلى الإسرائيلي نظرة النقيض؛ فالإسرائيلي الغربي يحظى بالمكان والزمان والتعليم والرفاهية ويجول بثقة في الشوارع، بينما يضطر المقدسي إلى التخفي.

مكان المقدسي محدود. فالسلطات الاستعمارية تحدد نسله وامتداده الجغرافي والديموغرافي والبيولوجي، فيحترف حيل الامتداد والتسلل والتكاثر. يتنافس الجيران على المربعات والمثلثات والدوائر والحواكير أمام شح الموارد ورخص البناء. المكان المفتت يبتلع الزمان، والمقدسي يعيش حالة ترقب، فكيانه ووجوده في المدينة معرضان للتهديد الهلامي، والمستعمِرون قد ينقضون على مكانه الضيّق في أي لحظة، أو ربما يتم ترحيله أو اعتقاله أو هدم منزله. الأيديولوجيا الصهيونية تريده أن يرحل بعيداً، أو أن يبقى في البقعة نفسها من دون تكاثر أو توسع إلى المناطق المكرسة "لليهود فقط"، ومن دون خصوبة تهدد الإحصاءات. أمّا مساهمات القيادات فغالباً ما تنتهي بصور لرجال في بزات رسمية في إطار حداثوي لامع لفنادق فخمة، بينما تستمر سياسة التطهير العرقي على أرض الواقع. فالمقدسي الذي تعوّد الانتقال إلى الامتداد الجغرافي الذي يدعى "الضفة الغربية" صار يضطر إلى المرور بسرطان طوابير التفتيش، وإذا حدث أن ملّ الحدود المفروضة وتحركت قدماه إلى الجانب "اليهودي" من المدينة، تعرّض جسده لجهنم الرقابة والفحص العنصري، أو لتكفير وطنيته من أبناء شعبه. يعيش المقدسي حيرة وجودية، والبعض يسكر على المزاج الاستهلاكي الهروبي مشككاً في ماهية المقاومة في أجواء لا حرية تعبير فيها، وفي وقت نفضت القيادات الفلسطينية أيديها عنه (مثلما تنصلت قبل ذلك من اللاجئين الفلسطينيين وعرب "الداخل" وقطاع "غزة" مخيبة آمالهم بأي بديل). وإذا بالمستهلك الهارب يثير الأعصاب العنصرية لقيامه، من حيث لا يدري، بتلويث نظام الفصل من خلال "مواجهة فضيحة الفصل العنصري بفضيحة الاختلاط."

II

يشعر المقدسيون بالذنب للتجول في الجانب الغربي من المدينة، ويُشعرهم مستعمِروهم بأن مكانهم مقتصر على مساحتهم وقفصهم الضيق، لأن المستعمِر يسهل عليه ضبط المستعمَر، إذا كان في مكان محدد. إنّ تسرب العربي إلى المساحة المحددة للعرق الأوروبي يخيف المستعمِر، فتلك المساحة الرحبة من نصيب اليهودي، ولا يحق للعربي التمتع بها. يتحدى المقدسي البسيط هذا النظام. يجد نفسه متمرداً مكانياً. تتحدى النسوة المقدسيات والبروليتاريا المقدسية من دون وعي نظام فصل المدينة. فمع إنشاء جدار الفصل العنصري وسياسة العزل بين القدس والضفة الغربية، يدفع تكاثر المقدسيين السكاني، ووجودهم في مساحات ضيقة مزدحمة، وعملية البحث عن فرص العمل الشحيحة، إلى الامتداد العملي والجسدي نحو القدس الغربية. يتجول المقدسي في المناطق المنفصلة المكرسة لليهود وحدهم، ويلوث نظام الفصل العنصري. فهو لا يقر بأن غرب المدينة ليس جزءاً من مدينته، وإنما يجد نفسه يتغلغل أكثر فأكثر فيها. يتحدى الاتفاقات والمفاوضات التي تقسم مدينته، وكلما زادت الجدران علواً، ونظام الفصل العنصري عتواً، وترسخ عزله عن الضفة الغربية، ازدادت ثورته على الجغرافيا الضيقة، وتطورت لديه مهارات الاختراق والتسلل والتخفي والاستمتاع بالمساحة المكرسة للمستعمِر. وسيكون لذلك آثار في المخيلة الجماعية للمقدسيين على المدى البعيد، إذ سيشعر المقدسي بأن القدس الغربية جزء من مدينته، وسيرفض الاتفاقات الضيقة، وسيؤدي ذلك، على المدى البعيد، إلى تحولات في حدود القدس العربية في ذاكرة المقدسي المتخيلة. فمن جهة، سيشعر المقدسيون بأن لهم حقاً في القدس الغربية، ومن جهة أُخرى، سينتشر وباء "الأمنيزيا" ونسيان أن أحياء الضاحية والرام وأبو ديس وغيرها التي فرضت إسرائيل إلحاقها بالضفة الغربية هي من قدسهم ومدينتهم. ومن المفارقات قيام بعض المقدسيين باستئجار شقق في مستعمرة بسغات زئيف، واعتبار هذه المستعمرة "فلسطينية".

يقول فرانز فانون: "الأبيض هو الذي يخلق الزنجي، لكن الزنجي هو الذي يخلق الزنوجة." أمّا المستعمِر فيتعرف إلى المستعمَر من خلال تحركات جسمه ولغته ونبرته، ويتعرف إلى المستعمِرة من خلال زيّها وزينتها وكحلها. وفي كل مرة يدخل المقدسي دكاناً في الطرف الآخر من المدينة ذاتها، يصبح عرضة لسياسة "الفحص العنصري". ففي المقاهي والحافلات والمحلات التجارية والمستشفيات والمساحات العامة الإسرائيلية تترقب العيون لغة الجسد "الشرقية". فبما أن "العربي" غير ملوّن على غرار نظام الأبارتهايد الإفريقي، يشيع في إسرائيل التعرف إلى "العربي" من خلال تحركات جسده ونبراته وزيّه، ويمتد ذلك إلى اليهود من أصول عربية، ويتم تحديد مكانة الإنسان في سلم الرقي العرقي من خلال هذه الآلية. ففي كل مرة يواجه الإسرائيلي إنساناً آخر، تتم معاملته بناء على موقعه من سلّم التدرج العرقي الأقرب إلى النمط الأوروبي. فالعربي الأشقر الذي يرتدي بنطالاً ذا علامة تجارية معينة يُعامَل أفضل من أخيه الأسمر الذي يرتدي علامة مختلفة، والأمر نفسه ينطبق على العربية المرتدية زياً أقرب إلى شكل المستعمرين. والمستعمَر يقوم بـ "تذويت" نظام التفحص العنصري هذا، أي تحويله إلى ذات، فكثيراً ما يتعرف إلى أخيه العربي، لكنه يحاول التستر على ذاته، وعلى شعوره بالتنصل من أخيه العربي في الجانب اليهودي. فلقاء عربي آخر يذكر المستعمَر بذاته التي يحاول الهروب منها، ويخضعه لنظام الرقابة الاجتماعية التي يحاول تحرير نفسه منها نحو فردانية آنية.

III

يعيش العامل المقدسي انفصاماً داخلياً، فهو يترعرع على مفاهيم ذكورية تزوده بمكانة أعلى شأناً من المرأة في المجتمع الفلسطيني، وتقوم والدته بتزويده بهالة من التقديس وتفضله على أخواته من الفتيات، فإذا بهذه الأنا (الإيغو) تصطدم بمسؤوليات يصعب تلبيتها (إيجاد مصدر دخل)، وبمعاملة مغايرة في الطرف الآخر من المدينة. ويبدأ الشاب المقدسي بإدراك أن سطوته أقل شأناً مما نشأ عليه، فيعيش هذا الانفصام الداخلي بين "العربي" في القدس الغربية وبين السيد المأمور في أجواء عائلته. ومن المفارقة أن المتجول في القدس الغربية صبيحة السبت (العطلة الأسبوعية عند الإسرائيليين) كثيراً ما يصادف مجموعات من الشبان العرب الذين يتمشون في القدس الغربية ويحاولون عيش دور "الإسرائيلي" من خلال محاولة الاستحواذ الافتراضي على المساحة العامة. ومع إغلاق المحلات، نجدهم يبرزون سيكولوجيا المقهور، ويحاولون التمتع ببعض المكانة والسلطة وعيش دور "الإسرائيلي". فمع غياب الإسرائيليين يأخذ هؤلاء الشباب في ممارسة دور شباب "الغيتو"، وفي ممارسة سلطة افتراضية عدوانية أحياناً، وإبراز سلوكيات الانحراف مثل التحرش بالنساء، كما يستمعون إلى موسيقى إسرائيلية، ويتحدثون بالعربية حيناً وبالعبرية حيناً آخر.

يحسد المراهق المقدسي مستعمِره البرجوازي الأبيض. يحاول أن يعيش دور الإسرائيلي، فيخفي عروبته، ويتملى جسد الإسرائيلية أملاً منه بالشعور بالسطوة والتمتع ببعض ما يحظى به المحتل. يحاول أن يحرر نفسه من خلال الاستهلاك، فيرتدي ملابس تقرّبه من صورة الإسرائيلي، ويتناول الطعام ذاته، ويرتاد المساحات نفسها. يتذوق المستعمِر أطعمة المستعمَر باستمتاع، في الوقت الذي يخفي صاحب العمل الإسرائيلي الطاهي العربي خلف الستائر. يأكل المستعمَر طعاماً من ثمار أرضه المصادرة، والخارج من لمسات أخيه العربي المخفي خلف الستائر، لكن بغلاف إسرائيلي وتحت نظرات إقصائية تشير إليه وتلومه على التجول في الجانب "الإسرائيلي" من المدينة. في القدس الغربية، كثيراً ما يشعر الشاب المقدسي بالتحرر الآني، فيهرب من وطأة الرقابة الاجتماعية الصارمة ومسؤوليات "الرجل" المعهودة في القدس الشرقية، ومن العادات والتقاليد والمساحة الضيقة، لكنه سرعان ما يدرك موقعه في سلم علاقات السلطة، ويصطدم بواقع العلاقات الكولونيالية.

يقيم بعض العمال العرب صداقات مع بعض العمال الإسرائيليين، وتنشأ أحياناً بعض أشكال التضامن وعلاقات الصداقة بين العمّال في شرائح البروليتاريا المحلية، والتي تمتد أحياناً إلى المساحة الخاصة. الآباء يشعرون بصعوبة ضبط أبنائهم، فالابن ينشأ على رؤية والده المهان من السلطات العسكرية، والأبناء يتسللون إلى "أماكن غير معروفة" في الجانب الآخر من المدينة، وهم كثيراً ما يتقنون العبرية أفضل من آبائهم. يتمرد الأبناء على النظام القيمي بشكل متناقض، فالابن يعيش القيم الدينية الرجولية في القدس الشرقية، لكنه، من جهة أُخرى، يشعر بأن غرب المدينة مساحة لممارسة الممنوع اجتماعياً في القدس الشرقية، وفسحة للانحراف عن القيم الأبوية التقليدية وعن الدين المتزمت، الأمر الذي يؤدي إلى عواقب متعددة. ومع محاولة الحصول على فسحة من الحرية في القدس الغربية، يتعرض المقدسي للضرب في القدس الغربية إذا اكتشف الإسرائيلي أنه ينتمي إلى قاع سلم "الفحص العنصري" (عربي؛ مسلم؛ متدين؛ أسمر)، فيتم إيقافه بذريعة محاولة الكشف عن إرهابيين. يضطر المقدسي إلى تحديد بطاقة هويته وهويته العرقية باستمرار، وفي مواجهة ذلك، فإن الخوف يدفع البعض إلى التشديد المفرط على المسالمة وعدم التسيس في المساحة

العامة الإسرائيلية، بينما يتعلم آخرون مهارة التخفي، أمّا البعض الآخر فيبدأ بإدراك حقوقه في القانون الإسرائيلي، ويدافع بثقة وبلغة عبرية متقنة عن ذاته وأصدقائه. وكثيراً ما يعيش المقدسي المراهق أزمة التخفي عن هويته في كل من القدس الشرقية (حيث يضطر إلى إخفاء هويته الذاتية ونزواته)، وفي القدس الغربية (حيث يضطر إلى إخفاء هويته الدينية وعروبته في نظام فحص العروبة). وفي مواجهة شعور الانتقاص يأخذ العامل العربي بتفخيم الـ "أنا" في القدس الشرقية، وكثيراً ما يترافق ذلك مع التشديد على هوية ذكورية دينية متعالية.

IV

أمّا المقدسية، فإنها، في محاولاتها الهروب من قهر المجتمع الذكوري الفلسطيني، تشعر بنشوة من الحرية الموقتة من خلال "تذويت" حرية مستعمِرتها التي تتمتع بالمساحة والحدائق والشوارع و"السوبرماركت" الرحب "النظيف" حيث تخف الرقابة الموجودة في المدينة. والأم الفلسطينية تحسد نظيرتها الإسرائيلية على مساحتها، وتبجل الخدمات الاجتماعية التي تتيحها الحكومة الإسرائيلية للصحة والطفولة والمرأة. وفي الوقت نفسه، تشعر المقدسية بتهديد [حقها في] البقاء، ذلك بأن سياسات الهدم وسحب الهويات يهددان نسل عائلتها ومنزلها، فتبدأ بالبحث عن الاستقرار خوفاً من أجهزة الرقابة. وبينما يشدد المقدسي داخل المجتمع المقدسي على رجولة وهوية سياسية دينية، تركز أغلبية النساء على الاستقرار والقضايا الاجتماعية، لكن في اللحظة التي تعيش المقدسية تجربة الفقدان، فإنها تتمرد على نظام الاستقرار ذاته. وفي قرى القدس حيث يبدي الاحتلال عنجهية في مصادرة الأراضي وفرض الجدار، تنشط المرأة على الصعيد السياسي.

على غرار المرأة الجزائرية، تشعر المقدسية بأنها مكشوفة للنظام الاستعماري بآليات الضبط والفحص والتقنية والتحديد الديموغرافي، وعلى غرار الأرض، يتعرض جسدها للكشف من جانب النظام الاستعماري، وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى ردات فعل مثل تغطية جسدها من جهة، أو الكشف عنه للتماهي و"المرور" من جهة أُخرى. ويشعر المقدسي أيضاً بعدم القدرة على التحكم في المرأة، الأمر الذي يدفعه إلى الهيمنة المتزايدة على جسدها، لكنه سرعان ما يكتشف أنه عاجز عن ذلك. نعيش حالياً هذا الواقع، فالمرأة تتمرد أكثر فأكثر على هيمنة الرجل، لكن العنف الأُسري يزيد. ويحاول النظام الاستعماري "حماية" المرأة من العنف، بينما يترسخ العنف والعنصرية من جانب القوات الإسرائيلية والجرافات الإسرائيلية المهددة والمخترقة خصوصية الفلسطينية ومساحتها. ويأمل "فانون" بأن تنتقل المرأة إلى مرحلة تحرر فيها جسدها وتصبح قوة فاعلة في المقاومة. تقاوم المرأة الفلسطينية، وبطريقتها، عدة تحديات. فهي في صراع مع ذاتها، ومع الرقابة الاجتماعية، ومع والدة زوجها، ومع مديرها/مديرتها، ومع الموظفين/الموظفات الأُخريات، ومع أخيها أو والدها أو زوجها، ومع الأوضاع الاقتصادية، ومع الاحتلال بأدواته الاختراقية والعنصرية. "تُذوِّت" بعض النساء نظام القمع هذا، ويساهمن من دون إدراك في إشاعته، بينما تتمرد أُخريات على هذه الأنظمة بطرق ودرجات متفاوتة. إن تضامن المتمردات في حركة اجتماعية سياسية فاعلة ربما يكون له عواقب فاعلة أكثر مما نتخيل، لكن من المؤسف أن أغلبية النساء غير متضامنات في حركة كهذه.

V

تجد المراهقة في الفسحة المجهولة في الجانب الإسرائيلي من المدينة مساحة لممارسة الممنوع والتخلص من الكبت اجتماعياً مستفيدة من اضمحلال الرقابة عليها، فتصاحب هناك أصدقاءها، وتضحك بصوت عال، أو تغير من زيها، وتحسد المستعمِرة على حريتها ومساحتها وحقوقها. وفي الوقت نفسه، تشعر المراهقة الفلسطينية بخوف من الأعين التي تخترقها وتراقب حجابها، ومن المجهول اجتماعياً في القدس الغربية، الأمر الذي يهدد عالمها الذي نشأت عليه، فتتناوب مشاعرها بين الحسرة والرغبة. وهذه الفسحة تثير غضب الشاب المقدسي الذي يتضايق من قدرة المقدسية على الهروب لوهلة من سطوته، وعلى ممارسة "الممنوع اجتماعياً". أمّا في علاقات التسوّق، فالمستعمِرة تتضايق من وجود زبونة فلسطينية في مكان آمر وليس مأموراً، ففي اللاشعور الصهيوني الكولونيالي تشعر الإسرائيلية بأن الفلسطينية يجب أن تخدمها لا أن تُخدم. ويتم احتواء وجود زُبُن مقدسيين من خلال التشديد على الاستغلال المالي لهم والأرباح التي يجلبونها. والإسرائيلية لا تعرف كيفية خدمة الزبونة الفلسطينية، وبالتالي، فهي تضخم سلطتها على مذاق الفلسطينية وجسدها. وكثيراً ما تسمح الفلسطينية المقدسية للإسرائيلية بتغيير شكلها مع ما يوحي ذلك بتغيير المكانة، وبنشوة افتراضية لحراك اجتماعي من خلال تحويل نفسها إلى جسد وزيّ أوروبي "أفضل"؛ جسد وزيّ أكثر نفوذاً، وأعلى في سلم التقسيم العرقي. لقد تذوّت بعض المقدسيات هذا النظام، فتعالين على أخواتهن من الفلسطينيات القاطنات في الضفة الغربية "المحرومات" من فرص "الارتقاء" بالمكانة العرقية المؤسرلة.

VI

يمارس المستعمِر السطوة على المستعمَر ليس فقط من خلال نظام "الفحص العنصري"، بل أيضاً من خلال التشديد على "همجية" مجتمع المستعمَر وثقافته في مواجهة "حضارة" المستعمِر وثقافته. فالمستعمِر يبرر وجوده من خلال دوره التنويري، في سعي منه لتبرير ممارساته. وأشد ما يروع المستعمِر رؤية ذاته بعدسات المستعمَر، فهو لا يود الإقرار بانتهاكاته، ويشدد على كونه ضحية وليس جانياً، وهو في حالة هروب مستمر من ذاته. ويروع الجاني الشعور بأن تبريراته خطأ، وأن الضحية ليست بربرية كما قد يتخيل؛ ففي ذهنية المستعمِر صورة مشوهة متناقضة عن المستعمَر، فالعربي في نظر الصهيوني هو: عدو ـ ضحية؛ أحمق ـ إرهابي خطر؛ نشيط جنسياً ـ مخصي؛ منتهك لحقوق المرأة؛ محافظ بشكل مفرط على التقليد ـ من دون مبادئ؛ سارق؛ جاهل؛ قذر. وكلما حاول العربي إبداء النقيض للصور النمطية إزاءه، وارتداء علامات تجارية غربية، أو إبداء علامات مغربنة، فوجئ باستمرار كشفه واحتقاره جرّاء النظرات العنصرية الفاحصة. والمستعمِر الأوروبي الغربي يحاول وصم العربي وحده بهذه الصفات، فيجد عنصريته تتسرب إلى اليهودي الشرقي أيضاً. وعندما يظهر للمستعمِر أن المقدسي العربي أكثر إنسانية مما كان تبادر إلى ذهنه، يبدأ بتصنيفات جديدة مميزاً الفلسطيني المقدسي عن الفلسطيني في الضفة الغربية، ومميزاً بين المناطق والفئات العرقية والإثنية والطائفية داخل القدس.

والمقدسي يدفع الضرائب للحكومة الإسرائيلية، لكنه لا يتلقى لقاء ذلك، إلاّ خدمات بسيطة، منها عائدات التأمين الصحي. فهو كثيراً ما لا يجد

خدمات طبية متخصصة في القدس الشرقية، فيضطر إلى التوجه إلى أطباء إسرائيليين، وهناك تبدأ العلاقة بينه كمريض وبين طبيبه القائم عليه، والذي يتكلم لغة الجندي في لاشعوره. يُخضع المقدسي جسده وذاته لطبيبه الإسرائيلي، فيضطر هذا الطبيب إلى ملامسة جسد "العربي المدنس"، بينما يضطر المريض الفلسطيني الذي تعوّد صورة الجندي الإسرائيلي المعني بتعذيبه وإبادته، أو صاحب العمل الإسرائيلي الذي يستغله، أن يضع ذاته تحت رحمة الطبيب الإسرائيلي. وتكشف الفلسطينية جسدها لطبيبها أو طبيبتها الإسرائيلية، فكونها خارج نظام الرقابة الفلسطينية يعطيها حرية ما (لو كان طبيبها/طبيبتها فلسطينياً/فلسطينية، فإن فرص إشاعة خبر مرضها في مجتمعها ستكون أكبر)، كما أن كون الطبيب الإسرائيلي متعوداً على فكرة الخلط بين الذكور والإناث يمنح الفلسطينية حرية أكثر من تلك الممنوحة لها أمام نظرات الطبيب الفلسطيني المتفحص لجسدها. في الوقت ذاته، تخضع الفلسطينية لعلاقات السلطة واللغة كون طبيبها إسرائيلياً، فتشعر بعدم القدرة على التعبير اللغوي، وتكون محاطة بغيرها من المرضى الإسرائيليين الممارسين بأعينهم نظام الفحص العنصري في المستشفى، الأمر الذي يثير مخاوفها، كما أن نظرات المرضى وعائلاتهم إلى المرضى الفلسطينيين تُقابَل بمشاعر عدم الارتياح من جانب المرضى الفلسطينيين. بالإضافة إلى ذلك، فإن مفارقة "ضرورة التخلص من الفلسطينيين" مترافقة مع "فلسطينيين نقوم بمعالجتهم"، ومع قَسَم أبوقراط، تخلّ بموازين الأطباء والمرضى الإسرائيليين. فالفلسطيني الذي يدفع عائدات الضرائب والتأمين مضطر إلى إبداء "التقدير" و"التبجيل" لهذا الاستعطاف.

VII

يمثل نظام الغيتو الشكل الحديث للمساحة العرقية العنصرية، وهذه ظاهرة عالمية اليوم. ففي يافا وعكا واللد والرملة، وفي البلدة القديمة، يسير بعض الحارات ضمن آلية غيتوهات محلية (الواد؛ باب حطة)، حيث يتشرذم الحي إلى حارات، والحارة إلى انقسامات طائفية/ سياسية/ مصلحية/اجتماعية. والمستعمَر يعيش حالة صراع على الموارد ويبدأ يشعر بالتهديد من أخيه، وبالفردانية المتزايدة في سعيه للاستهلاك المتزايد ظناً منه أن السلع الموقتة ستزيد في مكانته وحراكه الاجتماعيين. وفي الوقت ذاته، تقوم الحارات ذات الأبعاد العرقية ـ الدينية ـ الطبقية بحماية ذاتها، فالشبان من حارة معينة يتعاطفون مع أبناء حاراتهم وفتياتها في أثناء المواجهة والخطر وصراع الحارات، بينما تستمر الصراعات داخل الحارات.

وتتم محاولة ضبط المقدسيين ومراقبتهم من خلال انتشار الغيتوهات وبث مرجعية قيمية مبنية على الاستهلاك، مع ما ينجم عنها من علاقات التنافس والمصلحة والاستغلال والعنف، في الوقت الذي أخذت بعض الأجيال الجديدة تخرج من الغيتوهات نحو أحياء أُخرى من المدينة. وتحاول الإدارة الإسرائيلية تفكيك الشبكة الاجتماعية ـ القيمية بدعوى التخطيط لسكن أفضل و"التنوير" و"التطوير" وإعادة توزيع هيكلي جغرافي يفكك وحدة السكان وامتداداتهم العشائرية والسياسية، ويقضي على نظام التكافل غير الرسمي. إن تكاثر المقدسيين وحركتهم السكانية يثيران اهتمام المستعمِرين. فالمعركة محددة بيولوجياً وديموغرافياً وعرقياً بقدر ما هي معركة سياسية دينية، والعائلات والمتزوجون الجدد يصطدمون بنظام النسل هذا. فأي تحرك هنا أو هناك يؤدي إلى سحب الهويات ومنع البقاء في المدينة. وهنا، تزيد حيل المراوغة على هذا النظام والانتقال أكثر

فأكثر إلى قلب المدينة وغربها، بينما يحاول البعض الوشاية بالبعض الآخر. ومع سياسة الاحتلال القائمة على تفكيك العمل الوطني في القدس، يبدأ البعض بالتعبير عن آرائه من خلال مساحة الممارسة الدينية، فالدين والجغرافيا السياسية متداخلان في القدس، والدفاع عن المقدسات الدينية يغدو مقاومة سياسية، والتضامن والتزاوج مع الحركة الوطنية يزيدان داخل الخط الأخضر. ومع صعوبة إصدار بطاقات "لم الشمل" للإخوة في الضفة الغربية أو الشرقية التي باتت غربية (إذ إن معالم القدس الشرقية باتت تتقلص)، تتوسع معالم القدس الغربية.

VIII

في المشهد المقدسي في الثمانينيات، اعتاد المقدسيون متابعة الأنباء كل مساء من خلال قناة "إسرائيل"، ثم متابعة الأنباء الأردنية، فأصبح أمام أغلبية المقدسيين إمكان الاستماع إلى روايتين: الرواية الإسرائيلية التي تستهدف "الوسط العربي"، والرواية الأردنية المرتكزة على أخبار العائلة المالكة والمقلصة من وتر الأحداث على الساحة الفلسطينية. أمّا في أيام الجمعة مساء، فإن مقدسيي البلدة القديمة تعوّدوا مشاهدة فيلم الأسبوع العربي عبر القناة الإسرائيلية الموجهة إلى اليهود ذوي الجذور العربية، والتي، على خلاف المحطة الأردنية، لا تتضمن حذف أي مشهد بحجج أخلاقية، في الوقت الذي يتم تضخيم المحتوى السياسي للأنباء وتشويه الحقائق. وفي أواسط التسعينيات بدأت تمردات إعلامية من خلال استبدال ذلك بالصحون العربية التي تجلب روايات أُخرى، وهي روايات تضع الوضع الفلسطيني نصب الأعين بنبرة شبه بطولية. وقد تكاثر استنساخ الفضائيات بموضوعاتها وعروضها المتناقضة، فبدأت تنتشر مصطلحات جديدة ودلائل دينية وسياسية وترفيهية جديدة ذات أبعاد مختلفة. وعلى خلاف التجربة الجزائرية، في فترة النضال الوطني، لم ينجح الفلسطينيون في إيجاد إعلام بديل، فالإشكالية ليست متعلقة بالإعلاميين فحسب، بل أيضاً بجمهور المتابعين للإعلام، وبعملية التفاعل فيما بينهم.

القدس اليوم هي عاصمة الثقافة المستعمَرة. إنها مثال حي على سيكولوجيا المستعمَر بتناقضاته وجدليته. أرى إخوتي ينقرضون شيئاً فشيئاً، وكياننا الملون مهدد (صوفيون؛ فلاحون؛ لاجئون؛ خلايلة؛ مغاربة؛ أفارقة؛ سريان؛ أرمن؛ أكراد؛ يونان؛ أحباش؛ أقباط؛ لاتين؛ موارنة، إلخ). الأماكن تتغير، والأفق يضمحل. الاستهلاك وأجهزة الرقابة يخترقاننا، والمستعمِر يتناولنا مفعولاً به بدلاً من فاعلين. وعلى صوت الأذان يستيقظ من تبقى من المقدسيين كي يبدأ يوماً آخر من الكفاح. الجغرافيا الخانقة تزيد، والجغرافيا المقاومة تزيد أيضاً، فنجد أنفسنا نشد على أيدي إخوتنا ونتابع أيامنا العادية وصداماتنا العادية وتكاثرنا العادي. ومن حيث لا ندري نغير الجغرافيا والديموغرافيا، ونقاوم الحدود. ■